خلاف فقهى أم صراع سياسى ؟

فى عام ١٩٥١ أنشئت فى القاهرة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية. كان سكرتيرها العام سماحة الشيخ محمد تقى القمى من كبار علماء الشيعة فى إيران، وشارك معه عدد كبير من شيوخ الأزهر كان منهم الإمام الأكبر عبد المجيد سليم شيخ الأزهر الأسبق، والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، والإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق وعشرات غيرهم، ومن شيعة إيران الإمام الأكبر الحاج اقا حسين البروجردى، والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، والشيخ عبد الحسين شرف الدين الموسوى.

وبقدر ما لقيت الدعوة إلى التقريب بين المذاهب من التشجيع والتأييد فقد واجهتها عواصف من المعارضة والهجوم، وقال المتعصبون: إن هذه الدعوة تهدف إلى نشر المذهب الشيعى بين أهل السُنّة، وفى إيران هوجمت الدعوة بنفس القوة. وقيل إن هدفها نشر مذاهب أهل السُنّة بين الشيعة، وقيل إن هدفها إلغاء المذاهب، كما قيل إنها تسعى إلى إدماج المذاهب.

ولم تكن هذه الشكوك بدون أساس، فقد كانت الكتب المليئة بالطعن والتجريح منتشرة بين أتباع كل فريق، وكان أعداء الشيعة يرجعون دائماً إلى ترديد ما جاء فى هذه الكتب عن طوائف وعقائد لم يعد لها وجود عند الشيعة الآن، واتهم كل من يسعى إلى التقريب بأنه عميل ومأجور إلى غير ذلك من الاتهامات المألوفة التى تُلقى ببساطة على كل من يخالف فى الرأى أو يؤيد دعوة جديدة.

وقد لخص الإمام محمد تقى القمى هدف جماعة التقريب فى السعى إلى توحد المسلمين على أصول الإسلام التى لا يكون المسلم مسلما إلا بها، وأن ينظروا فيما

يختلفـون فيه، فإن اسـتطاعوا أن يصلوا إلى اتفاق حولهـا فذاك خير، وإن لم يتفقوا فليحتفـظ كل منهم بما يراه، وليعذر الآخرين وليحسـن الظـن بهم، لأن الاختلاف علـى غـير أصول الدين لا تضر بالإيمـان، ولا تُخرج المختلفين عن دائرة الإسـلام. كمـا أن إدماج المذاهب ليـس أمرا طبيعيا، والأمر الطبيعـى أن يختلف الناس في فهم النصوص ومدلولاتها باختـلاف الزمان والمكان واختلاف الظروف والمصالح، واختلاف مناهج البحث. الشـرط الوحيد أن يكون الاختلاف فى الدائرة التى أباح الله فيها الاجتهاد. وفى اختلاف الأئمة رحمة وتيسير للعباد.

الهدف من التقريب- كما قال الإمام القمى- ليس توحيد المذاهب، ولكن أن يعرف المسـلمون بعضهـم بعضا، وأن يعودوا فـى تفكيرهم وعلاقاتهـم إلى تقاليد الثقافة الإسـلامية الأصيلة، حيث كان المفكرون المسـلمون يختلفون فى الفقه واسـتنباط الأحـكام فى عهد الأئمة المجتهدين، ولم يحـدث أن رمى أحدهم غيره بالخروج على الشريعة أو زعم لنفسه أنه هو وحده صاحب الرأى المقدس الذى لا يجوز الخروج عليه، أو فكّر فى حمل الناس على الاقتناع به.

وقد وضعت جماعة التقريب منذ بدايتها قانوناً جاء فيه ما يلى:

أولا: أن جماعـة التقريب لا تريد المسـاس بالفقه الإسـلامى، ولا إدماج مذاهبه بعضهـا فى بعض، بل ترى على النقيض من ذلك أن هذا الاختلاف الفقهى مفخرة للمسلمين ودليل خصوبة فى التفكير وسعة الأفق.

ثانيًا: أن الجماعة لن تمد يدها إلا لأصحاب المذاهب الإسلامية التى تعتقد بالعقائد الصحيحة التى يجب الإيمان بها.

ثالثًا: أن الجماعة ترى أن بعض المنتسـبين إلى المذاهـب الإسلامية يجعلـون لبعـض المعارف والآراء التى لا صلة لها بالعقائد الصحيحة أهمية طاغية تدفعهم إلى التخاصم ونسـيان ما جمع الله عليه القلوب، وترى أن أعداء الإسـلام يتخذون من هذه الخلافات أبوابا ليضربوا بعض المسلمين ببعض، ثم يضربوهم جميعا.

رابعًا : تؤمن الجماعة بالعمل على التفرقة بين ما هو عقيدة يجب الإيمان بها، وما هو رأى لا يضر الاختلاف فيه، وأن من بين هذه الآراء والمعارف ما يظن البعض أنها من العقائد وهى ليست منها.

خامسًا : الغرض من تأليف هذه الجماعة أن تكون مركزاً إسلامياً لهذه الفكرة وتهيئ لها جو البحث العلمى لكى تتضح أسباب الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية، والوصول إلى الرأى الصحيح الذى يهدى إليه المنطق والدليل، وما يتبقى من اختلاف فى الفقه والفروع يترك لأصحابه دون إساءة.

□□□

العقبة أمام التقريب بين المذاهب- كما نبهنا الشيخ عبد المتعال الصعيدى أحد شيوخ الأزهر الكبار - ليس الاختلاف الدينى، ولكنه الاختلاف السياسى، لأن الاختلافات فى شئون الدين لا تفرّق المسلمين ولا توجب العداء بينهم، ولكن تدعو إلى الحوار والتفاهم بشأنها، أما الاختلاف السياسى فإنه يتعلق بشئون الدنيا وأطماعها وهذه يصعب الاتفاق عليها إذا تعارضت المصالح والأهداف. ولقد حاول المأمون الخليفة العباسى جمع المسلمين على مذهب فقهى واحد بالقوة ولم يستطع.

وقد تحمس واحد من كبار شيوخ أهل السُنّة وهو الشيخ عبد اللطيف دراز لدعوة التقريب. وقال: إن الاختلاف لم يظهر بين المسلمين إلا على أيدى الأتباع المتعصبين للأئمة. والذين ظنوا أن الالتزام بمذهب من المذاهب دينا لا يجوز للمسلم أن يخالفه، واعتبروا المذهب فى حكم العقائد، ورتبوا عليه مسائل فقهية صادرة عن العصبية المذهبية. فأدى ذلك إلى تفريق الأمة، وكانت النتيجة حالة الضعف التى وصل إليها المسلمون. واقترح الشيخ دراز مساهمة الدول والهيئات الإسلامية فى إصلاح الحالة العلمية، وإنشاء جيل من العلماء يتفهم وجه الحق ولا ينساق مع دعوات الاختلافات، ووجه الشيخ دراز الدعوة إلى الأزهر للقيام بهذه المهمة

باعتباره الوارث الوحيد للثقافة الإسلامية وهو الذى حفظها وحافظ على تقاليد الحرية الفكرية واختلاف الآراء.

□□□

ولأستاذنا الشيخ محمد الغزالى مقال أشار فيه إلى أن الملك (نادر شاه) سعى إلى عقد صلح مع الأتراك ينقى الجو بين الشيعة وأهل السُنّة ويضع حدا للاختلاف القائم بين الفريقين، وفى مجمع دينى عقده نادر شاه جمع فيه فقهاء الفريقين توصلوا إلى اتفاق يقضى بضم الشيعة إلى المذاهب السُنّية الأربعة وجعله مذهبا خامسا. وبموجب هذا الاتفاق خصص بعد ذلك مقام خامس للمذهب الجعفرى فى دائرة الحرم المكى بجوار مقامات المذاهب الأربعة السُنّية، وصار لزاما منذ ذلك الوقت الإقرار بسُنّية هذا المذهب. ولكن سرعان ما ظهر أن هذا كله كان حلما براقا - كما قال المستشرق للجرى جولدتسهير- فالحقد المتوارث الذى يحمله كلا الفريقين للآخر شطر فقهاء المذهبين شطرين وجعلهم بعد موت نادر شاه يتراجعون عن سياسة التسامح والوفاق.

وقال أستاذنا الشيخ الغزالى: لقد أحسست وخزا وأنا أقرأ كلمة (الإسلام الشيعى) و(الإسلام السُنّى) التى ترددت على لسان المستشرق المجرى مرارا. هل هناك إسلامان حقا؟ إنه إسلام واحد. وقد ارتضى الله لنا الإسلام دينا، وقد يختلف المسلمون فى أمور عديدة، ولكن أحدا منهم لا يرضى بعنوان غير الإسلام، إذن فما الذى حدث؟. الحقيقة أن هناك أناسا لا يتقون الله فى دينهم ولا فى أمتهم أطلقوا الظنون والشائعات لتمزيق الشمل، فكانت جماهير العامة - للأسف الشديد - هم ضحايا للكذب المتبادل، والمستشرق جولدتسيهر معذور فيما كتب عنا، فقد خُيلِّ إليه أننا مولعون بالاختلاف، وإذا كان الأوائل قد جنوا الحنظل من هذا المسلك، فما حِرْصُنا نحن على التمسك به؟

وقال الشـيخ الغزالي: جاءني رجل من العوام غاضبا يتسـاءل: كيف أصدر شيخ الأزهر فتواه بأن الشـيعة مذهب إسلامي كسائر المذاهب المعروفة؟. فقلت للرجل: وماذا تعرف عن الشـيعة؟. فسـكت قليلاً ثم أجاب: ناس على غير ديننا! فقلت له: لكنـي رأيتهم يصلون ويصومون مثلنا! فتعجب الرجـل وقال: كيف هذا؟ قلت له: والأغرب أنهـم يقرءون القرآن مثلنا، ويعظمون الرسـول ﷺ، ويحجون إلى البيت الحـرام.. قال: لقد بلغني أن لهـم قرآنا آخر، وأنهم يذهبـون إلى الكعبة يحقّرونها، فنظرت للرجل راثيا وقلت له: أنت معذور، فإن بعضنا يشيع عن البعض الآخر ما يحـاول به هدمه وجرح كرامته، كما يفعل الروس بالأمريكان، والأمريكان بالروس، فيمـا أسمـوه الحرب الباردة، كأننـا أمم متعادية لا أمة واحـدة. ولا أنكر أن هناك خلافا نشب بين بعض العلماء والبعض الآخر، إلا أن ذلك لا يسوغ نقله من ميدان التخصص إلى ميدان الحياة العامة ليقسـم أمتنا، وهب أن ذوى الأغراض، أو ذوى البلاهة صنعوا ذلك قديما، فلحساب من يبقى هذا الشر وتعانى الأمة كلها ويلاته؟.

وختم شيخنا الغزالي مقالهِ بقوله: علينا نحن- حملة الإسلام- أن نصحح الأوضاع، وأن نزيل الأوهام، وأعتقد أن فتوى الأسـتاذ الأكبر الشـيخ محمود شـلتوت شوط واسع في هذا السبيل.

□□□

والحقيقـة التي يجب أن نكررها حتى يتفهمها الناس هي أن الشـيعة يتبرءون من الغـلاة والمتطرفـين. وقد تحدث عنهم بالتفصيل واحد من كبار علماء الشـيعة هو الشـيخ محمد جواد مغنية فقال: إن ما ذكره الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) عن فرق تدعى أن الأئمة آلهة، أو أشباه آلهة، أو أنصاف آلهة، فإنها وأمثالها من الفرق لها دين خاص لا يمت إلى الإسلام بصلة، ولكن ما زال كثير من الكُتّاب ينسب- جهلا أو تنكيلا- عقيدة هؤلاء الغلاة إلى مذهب الشيعة الإمامية، مع أن الإمامية أبرياء منهم،

وقد استدلوا بكتب العقائد والأصول على كفر الغلاة ووجوب البراءة منهم ومن كل ما فيه شائبة الغلو، مستندين فى ذلك إلى قوله تعالى فى الآية(٧٧)من سورة المائدة:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

وقد أجمع علماء الشيعة الإمامية على نجاسة الغلاة، وعدم جواز تغسيل ودفن موتاهم، وتحريم إعطائهم الزكاة، وعدم جواز زواج الواحد منهم بالمسلمة، وليس للمسلم أن يتزوج منهم، ولا يرث منهم المسلمون، وهم لا يرثون المسلمين.

بعد ذلك البيان الواضح لم تعد هناك حجة لمن يخلط بين الشيعة المعتدلة (الإمامية والزيدية) ومذاهب الغلاة التى تنسب نفسها إلى الشيعة، والشيعة يعلنون البراءة منهم.

وقد أشار الشيخ عبد العزيز عيسى إلى هذه الظاهرة فى مقالة نشرها فى مجلة رسالة الإسلام التى كانت جماعة التقريب بين المذاهب تصدرها قال فيها: من الواجب أن ندرس قبل أن نحكم، وأن ندرس الجديد ولا نكتفى بالقديم، وأن نعلم عن يقين ما الذى تحول وما الذى بقى دون أن يتحول، وأن نتابع الأفكار من مصادرها الأصلية، وأن نفرّق بين ما يراه الخاصة الذين لهم حق التحدث باسم العلم والفكر والرأى والمذهب، وبين العامة الذين ليس لهم إلا التقليد والتعصب ووراثة الآراء دون وقوف عند ما يعطيه الدليل أو يهدى إليه البحث.

□□□

كان النظام الأساسى لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية يحدد أهدافها بالعمل على جمع كل أصحاب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها، والسعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما، كما يحدد وسائل الجماعة لتحقيق ذلك بنشر الكتب،

وللمحاضرات، والصحافة، وعقد مؤتمرات عامة تجمع زعماء الشعوب الإسلامية، والدعوة إلى تدريس فقه المذاهب الإسلامية جميعها.

وكان مجلس إدارة هذه الجماعة يتكون من: محمد على علوبة باشا، والشيخ عبد للجيد سليم وكان وقتها رئيسا لهيئة الفتوى بالأزهر، والحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين، ومحمد حلمى عيسى باشا وزير المعارف الأسبق، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز وكان وكيلاً للأزهر، والشيخ أحمد حسين مفتى وزارة الأوقاف، والشيخ محمد عبد الفتاح العنانى عضو هيئة كبار العلماء (مالكى) والشيخ عيسى منون عضو هيئة كبار العلماء ورئيس الجمعيات الشرعية (شافعى) والشيخ محمود شلتوت- عضو هيئة كبار العلماء (حنفى) والأستاذ محمد تقى القمى (عالم شيعة إمامية) وفضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف أستاذ الشريعة الإسلامية، والشيخ حسن البنا (رئيس جمعيات الإخوان المسلمين)، والشيخ على الخفيف أستاذ الفقه بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة)، والمستشار أحمد علوبة بك، وعلى بن إسماعيل المؤيد مندوبا عن دولة اليمن (شيعة زيدية) والقاضى محمد بن عبد الله الأموى مندوبا عن اليمن (شيعة زيدية) والأستاذ ميرزا مهدى رفيع بك مشكى (شيعى إمامى من إيران)، والشيخ محمد عبد اللطيف السبكى أستاذ بالأزهر (حنبلى)، والشيخ محمد محمد المدنى الأستاذ بالأزهر.

هذا النظام الأساسى لجماعة التقريب بين المذاهب صدر فى فبراير ١٩٤٧. وقال الإمام محمد تقى القمى تعليقا على بدء نشاط الجماعة: إن الجماعة هيأت نفسها لمواجهة المتعصبين والمتزمتين وذوى الأغراض، وأنها تدرك أن البعض سيقول: إن التقريب بين المذاهب بدعة، وبالتالى سيكون الهجوم على الفكرة وعلى الجماعة شديدا، وبالفعل ليس بيننا من لم يأخذ نصيبه من هجومهم، ولكن كنا نعلم أننا نواجه رواسب قرون، وكنا نتوقع حملات فيها الطعن والتجريح، وكانت هذه

الحملات نفسها دليلاً على ضرورة التقريب للمجتمع الإسلامي كي يتخلص من التفكير السقيم.

ومع ذلك لم تستطع هذه الجماعة أن تحقق أهدافها، وربما كان ذلك بسبب التخوف لدى أهل السُنّة من أن تكون هذه الجماعة (حصان طروادة) لنشر المذهب الشيعي في المجتمع السُنّي، وعزز هذا التخوف ما هو شائع عن الشيعة من أنهم يعتبرون (التقية) من أصول المذهب، أي إنهم يظهرون غير ما يبطنون، كما أن أهل السُنّة وهم يحملون من الحب لأهل البيت ما لا يقل عن حب الشيعة لهم إلا أنهم لا يتفقون مع الشيعة في المغالاة في هذا الحب إلى درجة رفعهم فوق البشر وإلى مرتبة لا يجوز لإنسان أن يدّعيها، وأهل البيت أنفسهم لم يقبلوا هالة التقديس التي خلعها عليهم الشيعة.

ويضاف إلى ذلك العوامل السياسية بين الدول، ومشاعر الشعوب التي لا تعرف حقيقة المذهب الشيعي ومذاهب أهل السنة ولا تدرك الفروق بينها، ولا الفصل بين الغلاة والمعتدلين، ولا بين المذاهب التي ظهرت واندثرت والمذاهب القائمة الآن.. وغير ذلك من الأمور الدقيقة التي تحتاج إلى دراسة وتعمق وتخصص.

وفوق كل ذلك فإن تعصب أصحاب كل مذهب يجعلهم يرفضون مجرد الاستماع إلى من يخالفهم فضلاً عن أن يتفهموا ما لديه.

كل تلك الأسباب كانت عقبات تحول دون نجاح هذه الجماعة على رغم الجهد العلمي الكبير الذي بذله أعضاؤها وهم من كبار العلماء ويمثلون جميع مذاهب أهل السُنّة والشيعة المعتدلة.

□□□

ولكن المهمة انتقلت بعد ذلك مؤخراً إلى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) فقامت بجهد علمي للتقريب. وقد أشرنا إلى بعض ما جاء في الندوة

الأولى التـي عقدتهـا المنظمة فى الرباط عام ١٩٩١، وفى عـام ١٩٩٦ عقدت الندوة الثانية فى الرباط أيضا وأعلنت أن الهدف هو معالجة مشكلة التعصب المذهبى التى فرّقت المسـلمين، وجعلت أصحاب كل مذهب ينشرون الدعوة ضد من يخالفون مذهبهم، ويعتبرونهم على ضلالة، وبذلك ازداد عدد المسـلمين الذين يكفّر بعضهم بعضا دون علم بماهية المذاهب التى يكفّرونها.

وقـد جعلت المنظمة مـنْ أهدافها إعداد برنامج ثقافى يبرز المبادئ المشـتركة بين المذاهب الإسـلامية لتأكيـد وحدة المسـلمين، وكانت الورقة التى قدمها الشـيخ الدكتور يوسـف القرضاوى إلى الندوة الثانية تتحدث عن شـعار الاسـتعمار من قديم (فرق تسـد) وكل القوى المعادية للإسلام يجهدون أنفسهم للتفريق بين أبناء القبلة الواحدة مسـتغلين الاختلافات القديمة وزيادة اختلافات جديدة عليها، ومن ذلك صب النار على الاختلافات المذهبية ولا سـيما بين أهل السُـنّة والشيعة، فإن لم يوجد هذا الاختلاف فى بلد أوجدوا اختلافًا آخر، كالاختلاف بين السـلفية والصوفية، والاختلاف بـين المذهبيين واللامذهبيين، والاختلاف بـين للجددين والمقلدين.. وقال الدكتـور القرضـاوى إن الواجب علـى الدعاة المخلصين والمفكريـن الصادقين أن ينتبهوا إلى هذه المكايد ويسـدوا الطريق إليها، ويعملوا على لمّ شمل الأمة، فحرام أن يتكتـل أهل الباطل ويتفرق أهل الحق ويعادى بعضهم بعضا وهو ما حذر منه القرآن حين قال فى سورة الأنفال الآية٧٣: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

□□□

وللدكتـور القرضاوى دراسـة علمية تحليلية عن حديث افـتراق الأمة إلى ثلاث وسـبعين فرقة، وهو حديث مشهور تناقله الناس حتى اعتقدوا أنه حديث صحيح، وملخص الحديث أن الأمة سـوف تفترق إلى ثلاث وسـبعين فرقة كلها فى النار إلا

فرقة واحدة هى الفرقة الناجية. وهو حديث يوحى ظاهره بأن تفرق المسلمين قدر مكتوب على الأمة الإسلامية إلى الأبد ولا مهرب منه.

وفى بحثه عن قيمة هذا الحديث من السند قال الدكتور القرضاوى إنه لم يرد فى أى من الصحيحين -برغم أهمية موضوعه- ما يدل على أنه يعتبر حديثا صحيحا على شرط واحد منهما، وكذلك فإن روايات الحديث اختلفت، فلم تذكر كلها أن الفرق كلها فى النار إلا واحدة، وإنما ذكرت أن الأمة ستفترق، وذكرت عدد الفرق، والحديث وإن قال فيه الترمذى: إنه حسن صحيح، وكذلك قال ابن حبان والحاكم إلا أنه قائم على أساس رواية محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى. وقد نقل الحافظ المزى فى كتابه (تهذيب الكمال) عن أئمة الجرح والتعديل أنه كان يقول: حدّثنا أشياخنا فلان وفلان وسألت الإمام مالكًا عنه فقال: إنه ليس هو ممن تريد. وقال إسحاق بن حكيم عن يحيى القطان: وأما محمد بن عمرو فرجل صالح وليس بأحفظ الناس للحديث. وقال عنه يحيى بن معين إنه كان يحدث مرة عن أبى سلمة بالشىء من رأيه، ثم يحدث به مرة أخرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة. وقال عنه إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى: ليس بقوى الحديث. وذكره ابن حبان فى كتابه (الثقات) وقال: كان يخطئ. وعلّق الشيخ الدكتور القرضاوى على ذلك بأن مثل هذا الراوى- بعد ما قرأنا ما قيل فيه- لا يؤخذ عنه حديث خطير يكون هو العمدة فيه والمعوَّل عليه، بمثل هذا الحديث. وأن القول بأن الأمة الإسلامية لابد أن تتفرق إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة يفتح الباب لأن تدعى كل فرقة أنها هى الناجية وغيرها فى النار، وفى هذا تمزيق للأمة وطعن بعضها فى بعض مما يضعفها جميعا، ويقوى عدوها عليها ويغريه بها. ولهذا طعن العلاّمة ابن الوزير فى هذا الحديث عامة، لما يؤدى إليه من تضليل بعض الأمة لبعض، بل تكفير بعضها لبعض. وقال ابن الوزير للتحذير من التورط فى تكفير فرقة من الفرق: إياك والاغترار

بـ (كلها هالكة إلا واحدة) فإنها زيادة فاسدة، غير صحيحة القاعدة، ولا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة. وقال ابن حزم: إنها موضوعة.

وهكـذا فإن من العلماء قديمـا وحديثا من رد الحديث من ناحية السـند، ومنهم مـن رده من ناحية المتن والمعنى، لأنه جعل التفرق هو الأصل في الأمة الإسـلامية ممايتعارض مع قول الله في سورة المؤمنون آية٥٢: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾

وقد ذكر القرضاوى بالتفصيل المراجع والأسـانيد التى جعلته يحكم بأنه حديث موضوع، وعلى فرض ثبوته كما فعل بعض العلماء كالحافظ بن حجر، وابن تيمية، فـإن الحديث لا يدل علـى أن هذا الافتراق بهذه الصورة، وبهـذا العدد، أمر مؤيد ودائـم إلى أن تقوم السـاعة، ويكفى لصدق الحديث أن يكـون ذلك قد حدث فى وقت من الأوقات. فتوجد فرق ثم يغلب الحق باطلها فتنقرض ولا تعود أبدا، وهذا ما حدث بالفعل لكثير من الفرق المنحرفة، فقد هلك بعضها ولم يعد له وجود.

□□□

لماذا يختلف الناس؟

الشـيخ الدكتور القرضاوى أجاب عن هذا السـؤال بأن النـاس يختلفون عندما تكون نفوسـهم فارغة، ولا تكون لديهم آمال عظيمة وأحلام واسـعة، وإذا لم تنشغل النفوس بالمسـائل الكبيرة فإنها تنشغل بالمسائل الصغيرة، بل تتقاتل فيما بينها على لا شيء! وحال المسلمين اليوم يذكّرنا بالرجل من أهل العراق الذى ذهب إلى ابن عمر وسـأله عن دم البعوض هل يفسد الإحرام؟ فأنكر ابن عمر على السائل هذا التنطع فى السـؤال، على حين أن قومه خذلوا الحسـين رضى الله عنه حتى سـفك دمه. ويعلّـق القرضـاوى على ذلك بأنه من الخيانة أن يتقاذف الناس بكلمات أشـد من الحجارة والسهام من أجل مسائل تحتمل أكثر من وجه، وتقبل أكثر من تفسير، فهى من مسـائل الاجتهاد التى تدل على سعة هذا الدين ومرونته. ولهذا يجب ألا ينشغل

الناس بالمسائل الفرعية والجزئية أو الخلافية ويلهيهم ذلك عن الأصول والقضايا المصيرية، وعلى سبيل المثال فقد احتل موضوع خلق القرآن مساحة واسعة من التفكير الإسلامي في بعض العصور، واستطاع مفكرو المعتزلة أن يورطوا الدولة العباسية وخلفاءها، وأن يدخلوا معركة مع جمهور المسلمين وعلمائهم وأئمتهم، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، وأن يستخدموا الحديد والنار والسجن والتعذيب لإجبار المخالفين على ترك ما يعتقدون، وكانت فتنة، ومحنة يحمل وزرها الذين ادعوا أنهم من دعاة الحرية الفكرية!

ويقول الدكتور القرضاوى: لقد عجبت ممن يتحدث عن الإمامية أو الزيدية أوالإباضية أو غيرهم من الطوائف بأنهم يقولون بخلق القرآن، ومشكلتنا اليوم ليست مع من يقول بأن القرآن- كلام الله- مخلوق، بل مع الذين يقولون: القرآن ليس من عند الله، بل من عند محمد (!).

□□□

ويصل الشيخ القرضاوى بعد ذلك إلى أنه لا يكره البحث فى المسائل الخلافية، على أن يكون بحثا علميا مقارنا يرجح أحد الآراء على غيره بشرط أن يقوم بذلك أهل الاختصاص من العلماء المؤهلين لذلك، والذين يجمعون بين الفقه، والورع، والاعتدال. ويقول: الذى أكرهه أن يصبح البحث فى المسائل الخلافية أكبرهمنا، وأن نضخم هذه المسائل حتى تأكل وقتنا وجهدنا.

وطالب الشيخ القرضاوى من منبر الندوة: إننى أود من رجال المسلمين الذين حرصوا على إطلاق لحاهم فأحيوا هذه السُنّة، ألا نشغل الناس بهذا، أو أن نحكم بالفسق على من لا يعفى لحيته، ولهذا أسفت حقا حين علمت أن أحد المولعين بالخلافيات ألقى تسع محاضرات فى وجوب إعفاء اللحية، كما أسفت لأن أحدهم ألّف رسالة سماها (نهى الصحبة عن النزول على الركبة) وهو أمر يتعلق بهيئة

الصلاة وفيه أخذ ورد. وآخر كتب رسالة بعنوان: (الواحة فى جلسة الاستراحة)[1] إلى غير ذلك من الأمور التى اختلف فيها الأئمة.. ومشكلة المسلمين إنما تتمثل فى إلغاء العقل، وتجميد الفكر، وتخدير الإرادة، وقتل الحرية، وإضاعة الحقوق، ونسيان الواجبات، وانتشار الأنانية، وإعلاء الحكام على الشعوب، وتغليب القوة على الحق، والمنفعة على الواجب.. بينما رسالة الدعاة أن يركزوا على مواطن الاتفاق، والتعاون فيما عليه الاتفاق، فإن هذا التعاون فريضة، والتسامح فى المختلف فيه واجب.

□□□

وأهم ما ينبه إليه الشيخ القرضاوى أن التكفير أشد خطرا على المسلمين من كل ما عداه، فإن الحكم بالكفر على من قال لا إله إلا الله خطيئة دينية، وخطيئة علمية، وخطيئة سياسية. والسُنّة النبوية تحذّر أبلغ التحذير من اتهام مسلم بالكفر فى أحاديث صحيحة مستفيضة من ذلك: (إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه) رواه مالك والبخارى ومسلم وابن داود والترمذى- وحديث أبى ذر: (من دعا رجلاً بالكفر، أو قال: يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه (أى رجع عليه)) رواه البخارى ومسلم، وحديث أبى قلابة: (من رمى مؤمنا بكفر فهو كمن قتله) رواه البخارى ومسلم وذكر فى (الترغيب والترهيب) من قال لا إله إلا الله، فقد عصم ماله ودمه وحسابه على الله، ونحن لم نُؤْمَرْ بأن نشق عن قلبه، ولكن أُمرنا بأن نعامله بالظاهر، والله يتولى السرائر. وفى الحديث: (ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمن قال لا إله إلا الله، لا نكفّره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل.. ..) رواه أبو داود فى كتاب (الجهاد من السُنن) ورواه أبو يعلى. وفى الحديث أيضا عن ابن عمر: (كفوا عن أهل لا إله إلا الله، لا تكفّروهم بذنب. من كفّر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب) رواه الطبرانى فى (الكبير).

□□□

(١) وتكون عقب كل ركعة يعقبها قيام ولا تكون إلا فى القيام للركعة الثانية والرابعة كما فى فقه الشيعة والشافعية.

وللدكتور حسن السايح الباحث السورى رأى للتقريب بين المذهبين.. فهو يطالب أهل السُنّة والشيعة من علماء الحديث بالاعتماد على الروايات المتفق عليها بين المذهبين وجمعها ونشرها فى كتاب واحد، والاعتماد فى نقد الحديث على المقاييس العلمية، وتوحيد مصطلحات للمحدثين عن أهل السُنّة والشيعة معا.

وكذلك تجب مراجعة كتب التاريخ التى كتبت فى ظل التوجه نحو تعميق الخلافات بين المذاهب الإسلامية لأسباب سياسية، بحيث تعاد كتابة التاريخ الإسلامى دون الاعتماد على الرواة المتأثرين بالتعصب لانتماءات ومصالح سياسية، ودون الخوض فى أنظمة الحكم الإسلامى، هل هى الخلافة أو الإمامة أو غيرهما، لأن الإسلام يشترط فقط وجود حكومة عادلة. ولا مخالفة فى وجود أنظمة تختلف فى شكلها وتحافظ على المضمون: العدل وتحقيق مصالح الناس.

والمنهج القرآنى يوجه المسلمين بمفاهيم كلية دون النزول إلى التفصيلات الجزئية إلا فى بعض الأمور القليلة، والحكمة من ذلك أن يلتزم المسلمون بالقاعدة الكلية ولهم الحرية فى الاجتهاد فى التفصيلات والجزئيات، والأساس فى التشريع الاسترشاد بروح النص، والاجتهاد مفتوح لكل المذاهب حسب التطور التاريخى، واختلاف المجتمعات.

كذلك فإن كتب التفسير تحتاج إلى مراجعة، فلدينا مجموعة تفاسير مختلفة الاتجاهات، متأثرة بمذاهب أصحابها، والمسلمون يحتاجون اليوم إلى تفسير حيادى معتمد من المؤسسات العلمية السُنّية والشيعية معا.

□□□

وهناك أفكار أخرى للتقريب بين المذاهب طرحها الشيخ أحمد كفتارو المفتى العام لسوريا، تبدأ بأن اختلاف المذاهب يرجع أولا إلى الاختلاف فى المنهج والاجتهاد، وترجع ثانيا إلى أسباب أخلاقية تتمثل فى الغرور وسوء الظن بالآخرين، والتعصب، والحكم على كل رأى مخالف بأنه باطل. والحل أن يبقى الاختلاف بين المذاهب

فى إطـار الفكر والاجتهاد، وبذلـك يكون الاختلاف رحمة ولا يصـل إلى العداوة فيكـون كاختـلاف الذين كانوا قبلنـا كما ذكرت الآية ١٩ من سـورة آل عمران: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ والمفروض فرضا على المسلمين أن يتبعوا منهجا وسطا ليس فيه مغالاة أوتعصب أو تطرف: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة- ١٤٣- والفضيلة وسـط بين الإفراط والتفريط، وكلاهما رذيلة، وفى الحديث: (إن هذا الدين يسـر، ولن يشـاد الديـن أحد إلا غلبه، فسـددوا، وقاربوا، واسـتعينوا بالغدوة والروحة وشـىء من الدلجـة) أخرجه البخـارى. وفى القرآن آيـات محكمات متفـق عليها بين جميع المسلمين ولا مجال للخلاف فيها وهى كثيرة، وفيه آيات متشابهات وهذه آيات قليلة جدا يمكن البُعد عن الخوض فيها كما ذكرت الآية ٧ من سورة آل عمران:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾

□□□

ومـن الضرورى أن يطلع أهل كل مذهب علـى المذاهب الأخرى، وقديما قيل: إن الإنسان عدو ما يجهل، وكثيرمن الرافضين لفكر الآخرين لم يطلع على الفكر الذى يرفضـه، ويجب ألا يصل الاختـلاف إلى أكثر من الفكـرة والكلمة، وفى الحديث: (لاترجعـوا بعدى كفارا يضـرب بعضكم رقاب بعض) أخرجـه الترمذى. من هنا أصبح لزاما على المسلم أن يتجرد من الهوى والتعصب وسوء الظن بالآخرين عند الحديـث عن مذاهب غـيرمذهبه، ويضع فى اعتباره أن المذاهب الإسـلامية حقيقة موجودة لا نملك تجاهلها، وهى موجودة منذ قرون، والاختلاف موجود بين المسلمين فـى كل بلد وفى كل عصر، ولم يحدث أن عاش المسـلمون زمنـا بدون اختلافات مذهبيـة، ولذلك فـإن توحيد المذاهب أمر لايمكن تحقيقه، لكـن الممكن هو التقريب

والتعاون والتسامح- وفى التاريخ الإسلامى محاولات سياسية لفرض مذهب واحد على سائر المذاهب كما حدث فى الدولة العباسية فلم يتحقق سوى إشعال الضغائن، وقد وضع الإمام مالك المنهج الصحيح حين رفض قرار الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور بأن يكون كتابه (الموطأ) هو المرجع الوحيد المعتمد فى الفقه الإسلامى وإلغاء كل ما عداه، وقال مالك إنه يرفض مصادرة حرية الرأى ومنع الاجتهاد، وبذلك فإن المنهج الصحيح هو الوحدة فى الأصول وقبول الاختلاف على الفروع.

وعلى أية حال فإن التقريب ليس مطلوبا بين أهل السُـنّة والشـيعة فقط، بل بين الفرق الأخرى التى وقعت فى دائرة التعصب، فالخلاف قائم بين الصوفية والسلفية، وبين أهل التأويل وأهل التفويض، كما هو بين أهل السُـنّة والشـيعة، والمؤلم أن هذه الاختلافات انتقلت مع المسلمين المهاجرين فى الخارج، فأصبحت عامل فرقة وتنابذ بدلاً من أن يكون الإسلام عامل وحدة يجمعهم فى الغربة على كلمة سواء.

□□□

ومن الأمثلة التى ضربها الشـيخ أحمد كفتارو المفتى العام لسـوريا على سـعة أفق علماء المسـلمين أن الأزهر نشأ على أيدى الفاطميين الشيعة وأن أكبر مدارس أهل السُـنّة فى الحديث كانت مدرسة نيسابور قرب مشهد فى إيران، ومن إيران وأطرافها جاء أئمة الحديث السـتة: البخارى، ومسـلم، والترمذى، والنسائى، وأبو داود، وابـن ماجـه. كذلك فإن ابن تيمية لم يرفـض التصوف وخصص جزءاً من فتاواه للحديث عن أئمة التصوف وأقوالهم، وفى فتاواه مجلدان كبيران، الأول بعنوان (التصوف) والثانى بعنوان (السلوك) وتلميذه الكبير ابن القيم سار على نهجه فوضع كتابه (مدارج السالكين) وهو أهم كتاب فى التصوف فى القرن الثامن الهجرى.

هذه النماذج تدل على أن الإسلام الصحيح يوحد ولا يفرق، ويستوعب اختلافات الرأى فيما يجوز فيه الاختلاف.

ويلفت الشيخ أحمد كفتارو الأنظار إلى مسألة مهمة، فيقول: إن دعوة التقريب تلاقى معارضة من مشـروعات تهدف إلى تحويل المسـلمين جميعا إلى المذهب الشيعى أو

تحويلهم جميعا إلى مذهب أهل السُنّة، أو تهدف إلى قمع السلفية أومحاربة التصوف، وهذه المشاريع تورطت فيها دول إسلامية مع الأسف، وأنفقت عليها الكثيرمن الأموال، كان الأجدى أن توجه إلى صالح المسلمين، ولم تحقق هذه المشاريع سوى تكريس العداوة بين المسلمين، مع أن نفقات هذه المشاريع تبلغ الملايين وتشمل مبانى، وإدارات، وكتبا، وإصدارات، وأجور دعاة، وتمويل إذاعات وإعلام، وبناء مساجد للدعوة لطوائف معينة، وهدر كل هذه الأموال ضد مصالح الإسلام والمسلمين، ولو وجهت هذه الأموال لمعالجة المشاكل الاقتصادية التى تئن منها بعض الدول الإسلامية لتحقق للمسلمين حياة كريمة بدلاً مما هم فيه من فقر وحاجة إلى معونات الأجانب، والأنكى أن التعصب المذهبى تسبب فى وجود حواجز نفسية بين الدول والشعوب الإسلامية، وانعكس ذلك على كل المعاملات حتى المعاملات التجارية، وأثّر تأثيرا سلبيا على دعوة التكامل الاقتصادية والتنمية الجماعية فى العالم الإسلامى.

□□□

ولا ينكر أحد أن الخلاف المذهبى كان سببا فى اثارة خصومات فى العالم الإسلامى، ووصل الخلاف إلى حد صراع إسلامى إسلامى فى بعض الأحيان، ومع الأسف فإن بعض الفقهاء يؤججون نار العداء، ويصبغون الصراعات السياسية بصبغة دينية ومذهبية، وينقلون بذلك الخلافات بين الحكومات إلى خلافات وقطيعة بين الشعوب. والغريب أن كل عدو للمسلمين لم يكن يفرّق بين سُنّى وشيعى لأنه مدرك بأن المسلمين أمة واحدة، لكن المسلمين لا يدركون ذلك(!) فالمغول والصليبيون والإسرائيليون والاستعمار القديم والحديث.. هل كان وهو يحارب ويقتل المسلمين يفرّق بين السُنّى والشيعى؟

يذكرنا المفتى العام لسوريا بما سمعه بأذنيه من مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت حين قالت: (لقد كان الغرب فى صراع مع الشيوعية، وبعد أن انهارت الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى فإن العدو للغرب هو الإسلام).

ومن مقترحات الشـــيخ أحمد كفتارو وضع ميثاق للتقريب بين المذاهب وبرنامج يحقق ذلك يشمل تأليف الكتب المشتركة فى التفسيروالسيرة والفقه على غرار تفسير (مجمع البيان) للطبرســى الذى أقره الأزهر، وتشــكيل لجان علمية لمراجعة الكتب الإســلامية القديمة والجديدة وحذف ما يسيء إلى المذاهب الأخرى، وإصدار مجلة تشــرف عليها لجنة متخصصة تعنى بنشر الأبحاث والدراسات المتعلقة بالتقريب بين المذاهــب، وإقامة مخيمات للشــباب من البــلاد الإســلامية مختلفة المذاهب ليتعودوا الحياة معا ويلمسوا أن الإسلام واحد وإن اختلفت مذاهب الفقه.

□□□

ولكى يصبح التقريب بين المذاهب حقيقة واقعة يطالب الشــيخ محمد التسخيرى من علماء الشيعة فى إيران بإعادة النظر فيما اعتبره العلماء من الأصول أو الفروع، لأن البعض أدخل ضمن الأصول ما ليس منها، وقد تكون تعبيرا عن أصل آخر من أصول العقيــدة، أو أن تكون قد اعتبرت كذلك دون توافر الحجة الكافية على ذلك، والأمثلة عليها كثيرة دخلت من باب الاستحســان. والاستحســان فى ذاته موضع خــلاف بين فقهاء المذاهــب، لأن بعضهم يعتبره قائما علــى رأى الفقيه فى تفضيل دليل على دليل آخر ويستوى عنده أن تكون الأدلة من الكتاب أو السُنّة أو الإجماع أوالقياس أو المصالح المرسلة، فإما أن يكون الحكم بها معتمدا على السُنّة فهى تلحق بالسُــنّة، وإما أن يكون تحديد المصالح بالعقل وحده وفى هذه الحالة تدخل ضمن الاجتهاد العقلى أو الاجتهاد الشخصى.

□□□

وكانت توصيات ندوة التقريب بين المذاهب فى الرباط، تشــمل: ضبط الخلافات الفقهية بين المذاهــب وحصرها، وتجنب التعصب المذهبى، والدقة فى تحديد محل الخــلاف لتجنب الخلافــات اللفظية المضيعــة للجهود، وتشــجيع حركة الاجتهاد بشــرط أن تتوافر فــى للجتهد العناصــر التى تؤهلــه لذلك، وتفضيــل الاجتهاد

الجماعي، ومراعاة ترتيب الأولويات فى أحكام الشـريعة سـدا لأبواب النزاع بلا طائل حول أمور ليسـت لها أهمية، والتثبت من المصادر الموثوقة ومن صحة نسبة الآراء والمواقـف التي أثارت الجدل والخلاف بين المذاهب، لأن بعضها مدسـوس نسـب إلى مذهب وهو برىء منه، والتركيز علـى الإيجابيات ونقاط الاتفاق، واحترام اجتهـادات أئمـة المذاهب جميعا حتى الذيـن نختلف معهم، وتوعيـة الرأى العام الإسلامى بالثوابت التى تجمع بين أبناء الأمة، ليعلموا أن عوامل الاتفاق أكثر وأقوى من عوامل الاختلاف، وتوجيه المناهج الدراسية نحو هذا الهدف.

□□□

وفـى ندوة أقامتها دار التقريب بين المذاهب بالقاهرة فى يونيو ٢٠٠١ قال شـيخ الأزهر فضيلة الإمام الأكبر د. محمد سـيد طنطاوى إن الخلاف بين المذاهب ليس على ركن من أركان الدين، ولا على أصل من أصوله، ولكنها خلافات فى اجتهادات حول الفروع ولكل إنسان الحق فى أن يكون له رأى فيها، وأفاض شيخ الأزهر فى شرح الآيات ٧٨ - ٧٩ من سورة الأنبياء :

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾

ذلـك أن رجلا كان عنده زرع، ورجلا آخـر كان عنده غنم، فأتلفت الغنم الزرع فذهبا إلى سـيدنا داود وقصَّا عليه ما حدث، فحكـم داود بالغنم لصاحب الزرع نظيرما أفسدته من زرعه، ولقى سيدنا سليمان الرجلين واستمع منهما إلى القصة فقـال: (لو كان الأمـر بيدى لحكمت بغيرهذا)، ثم أخذ الرجلـين إلى أبيه وقال له: (يانبـى الله أرى أن نعطى الغنم لصاحب الزرع لكـى ينتفع بها، أو أكلف صاحب الغنم بأن يزرع مرة أخرى ما أفسـدته الغنم، وعندما يعود الزرع إلى ما كان نعيد الغنم إلى صاحبها)، فقال داود: الحكم ما حكمت يا سليمان.

قـال الإمام الأكبر: هذه الآية، تدل على أن الخـلاف فيما يتعلق بالأمور الاجتهادية مشـروع ومقبول ويحقق المصلحة، وعلينا أن نشجع الحوار وتعدد الآراء ما دامت النوايا طيبة.

وقال المفتى الأسبق الدكتور نصر فريد واصل إن الاختلاف فى التفكير أمر طبيعى بين البشر، ولكن ليس من الطبيعى أن ينتقل الاختلاف الفقهى إلى السياسة والثقافة ويفرّق بين أبناء الأمة.

وقال الشيخ محمد على التسخيرى من علماء الشيعة فى إيران: إننا لا نريد تذويب المذاهـب لأنهـا تمثل إضافات عظيمة للفكـر وللفقه، ولا نريـد تغليب مذهب على مذهب، أما الدماء التى سـالت باسـم هذه الخلافات فقد كان وراءها فقهاء ابتلى بعضهم بضيق الأفق والتعصب، واسـتغل الحـكام ذلك ليحولوا الخلافات الفقهية إلى خلافات سياسية يبررون بها الحروب. والتقريب لا يتم إلا بالحوار فى جو هادئ بلا إثارة. ولنتعلم من الرسـول ﷺ حين اتهمه أهل قريش بالجنون، فإنه لم يبادلهم العداء، ولم يعلن الحرب عليهم، ولم يخاصمهم، ولكنه دلل لهم على أنه ليس مجنونا، وأيـده القرآن بكلمات هادئة ليس فيها انفعال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ وهذا هو منهج القرآن والسُنّة.

وقال الشيخ أحمد مسعود السيابى من علماء دولة عمان إن الخلافات شديدة بين العامة وهم الأغلبية فى العالم الإسلامى، والعامة لا يفكرون بالحجة والدليل، ولكنهم ينسـاقون بالعاطفة والانطباعات، وواجب العلماء أن يعملوا على نشر روح التسامح فى عامة المسلمين الذين لا يقدرون على معرفة الفروق الدقيقة بين مذهب وآخر.

□□□

وقـال الدكتور محمـود حمدى زقزوق وزير الأوقاف: إننـا لا نريد أن نهون من الأمر وندعى أنه ليسـت هناك خلافات، وعلينا أن نكون صرحاء ونعترف بأن هناك ما يباعد بين المذاهب الإسـلامية، وإلا لما اجتمعنا لنبحث عن كيفية التقريب بينها،

والقضية ليســت فى وجود اختلافات فى الفقه، فالمذاهب السُـنّية بينها اختلافات، وكذلك بين مذاهب الشيعة اختلافات، والسبب الحقيقى أن هناك صراعات تاريخية ليس للأجيال الحالية دخل فيها على الإطلاق، ومسـئولية العلماء أن يوضحوا ذلك للناس، لأن المشـكلة- كما قال الشـيخ التسـخيرى- أن العلماء ساعدوا على تعميق الخلافات وتبعتهم جماهير الأمة. والعالم الآن يتجه نحو التكتلات، والعالم الإسـلامى وحده الذى لا ينتبه، ولا يريد أن يجمع صفوفه ليكتسب عوامل البقاء فى هذا العالم، وعلـى حد تعبير الدكتـور أحمد كمال أبو المجد فى مؤتمر المجلس الأعلى للشـئون الإسـلامية فى القاهرة عام ٢٠٠١: إذا كان هناك فى التاريخ واقعة استشهاد سيدنا الحسـين فى كربلاء التى كان لها تأثير كبير فى هذا الانشـقاق الذى حدث، فأخشى أن تكون هناك الآن كربلاء أخرى، ينتحر فيها المسـلمون جميعا سُنّة وشيعة. وقال الدكتور زقـزوق: إذا كان العالم يتجه نحو الحوار بين الحضارات والثقافات فمن باب أولى أن يكون هناك حوار إسلامى- إسلامى.

وقـال الدكتـور زقـزوق إن الخلاف فى وجهـات النظر أمر طبيعـى ومطلوب، ولكـن المرفوض أن يحاول البعض فرض آرائهم علـى الآخرين، ويدّعوا أنه الحق المطلق وغيره باطل. مع ملاحظة أن التقريب بين المذاهب الإسـلامية ليس مسئولية الحكومات، ولكنه مسئولية العلماء والفقهاء والدعاة، فإذا صلحت الدعوة.. صلحت أحوال المسلمين جميعا.

□□□

وعندمـا عقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسـلامية فـى طهران فى مايو ٢٠٠٣ اعتمد استراتيجية للتقريب بين المذاهب.. ما زالت حبراً على ورق!

وتحدد هذه الاسـتراتيجية شـروطًا لنجاح الجهود للتقريب بـين المذاهب، **أولها:** حسـن النية، **وثانيها:** الحوار المنطقى الذى يعتمد على العلم، **وثالثها:** التسـامح ونبـذ العصبية، وأن تكون الأصول المتفـق عليها بين العلماء هى مصدر الحكم فى

الأمـور المختلف عليها، وأن يتولى تنفيذ اسـتراتيجية التقارب الفقهاء المتميزون من علماء المذاهب والأساتذة والباحثين المتخصصين. وأن تسهم فى هذا العمل الهيئات والمنظمات الإسلامية المختلفة.

والأسـس الفكريـة والعلمية للتقريب تتلخص فى: تأكيد خلو مصادر الشـريعة الإسلامية الأساسية من الاختلافات، وأن جوهر الإسلام واحد، والتأكيد على أحكام المسـائل التشـريعية التى تجمع المذاهب وتلتقى عندها الاجتهادات الفقهية، وهذه الأحكام كثيرة جدا تمثل الأساس لوحدة العقيدة الإسلامية. وأخيراً فإن على أصحاب المذاهب أن يتفقوا على أن الرأى الاجتهادى لا يتعدى كونه حكما ظنى الدلالة وليس حكما قطعيا، وليست له قداسة، وهو قابل للمراجعة والتغيير، والإمام الشافعى خير مثـال على ذلك فقد أقام مذهبه فى العراق فلما انتقل إلى مصر غيّر فى مذهبه؛ لأنه رأى مـن أحوال للجتمع وظـروف الناس ما لم يكن يراه. والدليل على سـعة أفق فقهاء الأمة الذين أسسـوا المذاهب الفقهية، والذين طوروها وأضافوا إليها، أنهم قد تتلمـذوا على المخالفين لهم فى المذهب الفقهى، ولم يوجه واحد منهم للمخالفين له تهمة الكفر أو الفسـق أو أنكر اجتهاده، وكانت القاعدة التى التزموا بها جميعا أن للجتهـد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ له أجر، أى ليس عليه لوم، والحوار فقط هو وسيلة التعامل معه.

والنمـوذج الذى يجـب أن يعمم موجود فى بعض الموسـوعات العلمية وبعض الدول الإسلامية التى تأخذ بالمذاهب الفقهية الثمانية: الحنفى، والمالكى، والشافعى، والحنبلى، والجعفرى، والزيدى، والإباضى، والظاهرى، وكذلك فإن ما قرره الأزهر مـن جواز التعبد على المذهب الفقهى الجعفرى وتدريسـه فى كلياته، هو النموذج الصحيح لسعة الأفق وقبول التعددية والاختلاف فى الرأى.

والاختلافات بين المسـلمين ليسـت فقط فى الرأى والاجتهاد، فهناك اختلافاتهم فـى اللغـات والأجناس والقوميـات، وفى العـادات والثقافات للحليـة، وفى نظم الحكـم والبناء الاجتماعى، ومـع كل هذه الاختلافات فإنهم أمة الإسـلام الواحدة،

وهذه الاختلافات وإن كان القضاء عليها يبدو مستحيلا فلا يتصور أحد أن يتكلم جميع المسلمين لغة واحدة، إلا أن الاختلاف وسيلة للتعارف والتقارب وليس سببا للقطيعة كما ذكرت الآية ١٣ من سورة الحجرات: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

□□□

ولكي يتحقق التقريب يجب التخلي عن إصدار أحكام بالكفر على المخالفين لنا في الرأى، ويجب اتباع المنهج الإسلامي بالحكم بالخطأ والصواب وفق ما قال به الإمام أبو حنيفة: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب. وما أعظم علماء الإسلام الكبار في التزامهم بهذا النهج الرشيد. وهذا يقتضي مراجعة الكتب القديمة في الفقه والتاريخ، وتنقية مصادر علم الكلام من أحكام الفسق والكفر على المخالفين في الاجتهاد، وتحديد (خانة الأصول) التي لا يجوز للمسلمين الاختلاف عليها و(خانة الفروع) التي يباح فيها الاختلاف.

والاختلاف في الفقه ليس متروكا لأنصاف المتعلمين أو غير المتخصصين من الهواة الذين قرءوا كتابا أو كتابين في الفقه واعتبروا بذلك أن لهم حق الاجتهاد، لأن للمجتهد يجب أن تتوفر فيه شروط دقيقة: أن يكون دارسا دراسة تفصيلية للقرآن عالما بأسباب نزول الآيات وتفسيرها وبالحديث ودرجاته ومعايير صحته، والتفقه في اللغة العربية لمعرفة أسرار ألفاظ القرآن وترتيبها، ومتعمقا في دراسة علم أصول الدين وعلم أصول الفقه، ودارسا للمذاهب الفقهية وما بينها من اتفاق واختلاف، وقبل كل ذلك أن تكون لديه الملكة والموهبة في التحليل والاستنباط.. وتوفر هذه الشروط جميعا في شخص واحد ليس بالأمر السهل، ولذلك نقول: إن الاجتهاد ليس سهلا، ومسئولية الخوض فيه أمام الله كبيرة.

وبالنسبة للشباب المسلم الذي يدفعه الحماس للدين إلى اعتلاء المنبر، وإصدار الأحكام والفتاوى، واتخاذ صفة الفقيه وعالم الشريعة.. فإن النصيحة لهم أن يلزموا

حدودهم، وألَّا يقولوا على الله بغير الحق، وألاَّ يتصدوا لمهمة كبرى يتحملون فيها وزر أخطائهم وتجاوزاتهم ووزر من صدقهم واتبعهم .

ولا شك في أن الحاجة ملحة لإنشاء معهد ديني للدراسات العليا يلتحق به الدارسون من جميع الدول الإسلامية، ويتولى التدريس فيه أساتذة وعلماء من جميع الدول الإسلامية، وتكون الدراسة والأبحاث فيه عن الفقه المقارن وتنقية كتب الفقه والتفسير والتاريخ مما فيها من قضايا ووقائع وأفكار مدسوسة على الإسلام، وأن يتم ذلك بأسلوب البحث العلمي المنهجي الدقيق.

المهمة صعبة.. والطريق طويل.. لكن الهدف نبيل يرضى عنه الله ورسوله.

□□□

هل تصلح الندوات والمؤتمرات ما أفسده الدهر؟

ومتى ينصلح حال العلماء والدعاة لكي ينصلح حال الأمة الإسلامية؟

وكيف لا يطيع المسلمون أمر ربهم بأن تكون أمتهم أمة واحدة؟

obeikandl.com

خاتمة

نحن فى عصر تسود فيه نظريتان متناقضتان. الأولى هى نظرية صراع الحضارات والثقافات التى ظهرت فى الولايات المتحدة وكانت ترجمتها العملية ما نراه من العداء للإسلام والحرب ضد المسلمين وغزو بلادهم، والثانية هى: نظرية حوار الحضارات والثقافات التى يتمسك بها العالم العربى والإسلامى، وتروج لها مصر بكل قوة.

وفى مصر بدأ الحوار بين الأديان، لأن دين الإسلام يأمر بالإيمان بالله، ورسله وكتبه جميعا، دون تفرقة بين أحد من الرسل. وقد لخص الرسول ﷺ حقيقة الإسلام بقوله: مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل بناء لا ينقصه سوى لبنة واحدة، وأنا هذه اللبنة، والمعنى أن الإسلام لا ينقض ولا يخالف ولا يعادى الأديان الأخرى، ولكنه، يصدقها ويؤمن بها.. الإسلام خطوة على الطريق الذى سارت فيه الديانات السماوية السابقة عليه، وليس طريقا مختلفا عنها أو متعارضا معها.

ولا يعقل أن يجرى حوار بين الأديان، ولا يدور حوار بين فرق وطوائف ومذاهب المسلمين أنفسهم، بينما هذا ما كان يجب أن تكون له الأولوية.

ولذلك فإننى أدعو فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وفضيلة المفتى، وفضيلة رئيس جامعة الأزهر إلى تبنى الدعوة إلى حوار دائم بين الفرق والمذاهب الإسلامية فى رحاب الأزهر الشريف، وهو قلعة الإسلام، والأقدر على جمع كلمة المسلمين، بما يحظى به من تقدير ومكانة عالية فى أنحاء العالم.

obeikandl.com

وقد زارنى السيد حجة الله جودكى المستشار الثقافى فى السفارة الإيرانية، وكنت أريد أن أستمع إلى ملاحظاته على ما كتبته عن الشيعة وهل فيها ما يحتاج إلى مراجعة، فكانت إجابته بأنه قرأ ما كتبته ورأى أنها دراسة موضوعية ليس فيها سوى رغبة فى المعرفة والوصول إلى فهم لمذاهب الشيعة قديما وحديثا.

وفى حديثه أبدى لى ملاحظات تستحق الدراسة ألخصها فيما يلى:

- إن الباحثين ينقلون من الكتب الأربعة المعتمدة لدى الشيعة، وهى: الكافى، والاستبصار، ومن لا يحضره الفقيه، والتهذيب، وهذه الكتب — مع مالها من أهمية كبيرة لدى الشيعة- فإن فيها الكثير من الأحاديث النبوية غير صحيحة، فكتاب الكافى مثلا فيه ٦ آلاف حديث منها أقل من ٢٠٠٠ حديث صحيح والباقى أحاديث مكذوبة- وهذا هو الحال فى الكتب الثلاثة الأخرى. ولذلك قام آية الله بهبهانى مؤخرا بمراجعة هذه الكتب الأربعة وتنقيحها وحذف الكثير من الأفكار مما لا يتفق مع المفهوم الصحيح للمذهب الشيعى، وأصبح المعتمد لدى الشيعة أربعة كتب جديدة هى: صحيح الكافى، وصحيح الاستبصار، وصحيح من لا يحضره الفقيه، وصحيح التهذيب. وهذه الحقيقة لا يعرفها كثير ممن يتحدثون أو يكتبون عن الشيعة، ومازالوا يعتمدون على الكتب القديمة وفيها كلام كثير مرفوض مثل القول بأن القرآن فيه تحريف بالحذف أو الإضافة، ومثل القول بأن الإمام فى الشيعة منصوص عليه فى القرآن، ومثل اعتبار التقية من أصول المذهب الشيعى.
- إن الباحثين من الشيعة يفرقون بين فكر الشيعة العلوى المنسوب للإمام علىّ، وفكر الشيعة الصفوى الذى نشأ فى عهد الدولة الصفوية فى إيران، وفيه غلو وتطرف، ولم يعد أحد من الشيعة الإمامية يردد أفكاره.
- إن عقائد الشيعة تختلف من بلد لآخر، ويصطبغ المذهب بتراث وثقافة وطبيعة شعب كل بلد، ولذلك نجد اختلافات بين الشيعة فى كل من إيران، والعراق،

وباكستان، وأذربيجان، ولابد من الالتفات إلى هذا الاختلاف فى ضوء اختلاف الثقافات وعدم النظر إلى الشيعة على أنهم جماعة واحدة.

- إن من الأخطاء الشائعة مثلا الاعتقاد بأن الرداء الأسود الذى يغطى كل جسم المرأة من رأسها إلى إخمص قدميها الذى يسمى (الجادور) هو لبس المرأة الشيعية وفقا للمذهب، وهو ليس كذلك، ولكنه جزء من تراث وتقاليد وثقافة الإيرانيين، فهو مرتبط بثقافة البلد، وليس بمعتقدات أو تعاليم المذهب. ولذلك نجد ملابس المرأة فى بلاد الشيعة الأخرى مختلفة، وبالطبع ليس هناك علاقة بين الملابس والعقيدة الإسلامية فى سائر المذاهب.
- إن شيعة إيران فى مرحلة من المراحل كانوا ينظرون إلى فكرة التقريب بينهم وبين أهل السنة بشىء من الريبة، ولكنهم الآن يختلفون، وكثير من المثقفين والعلماء يتفهمون أهمية التقريب، ولذلك أنشئ فى إيران مجمع التقريب بين المذاهب، وهذا المجمع يعقد مؤتمرات ويصدر مطبوعات ليس الهدف منها توحيد المذاهب، أو الدعوة للمذهب الشيعى، ولكن الهدف أن تتضح الحقائق ويعرف أهل كل مذهب حقيقة المذاهب الأخرى ليدركوا أنهم جميعا مسلمون لا يختلفون فى شىء من أصول الدين. ويضم هذا المجمع ممثلين عن مذاهب الشيعة الزيدية، والأثنى عشرية، والأباضية، والبهرة، مع ممثلين من مذاهب أهل السنة المالكية، والحنفية، والشافعية، والحنابلة.
- إن البعض يتصور أن زواج المتعة منتشر فى إيران وهذا غير صحيح، فهو موجود فى الكتب وفى أقوال الفقهاء أكثر مما هو موجود فى الواقع، ويعتبر مسألة فقهية أكثر منه مسألة حياتية فى المجتمع. والمرأة الإيرانية عموما ترفض زواج المتعة.
- إن الشيعة لم يشتركوا فى أية جماعة من جماعات التطرف والإرهاب، وعلى سبيل المثال فإن تنظيم القاعدة ليس فيه أحد من الشيعة، والهجوم على مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومقر وزارة الدفاع الأمريكية فى واشنطن فى

١١سبتمبر٢٠٠١ لم يشترك فيه شيعى.ولم يحدث أن شارك شيعى فى أية تفجيرات حدثت فى العالم.

- إن الخلاف الأساسى بين الشيعة والمتطرفين أن المتطرفين يعتمدون على الأحاديث أكثر من اعتمادهم على القرآن، والشيعة يعتمدون على القرآن أكثر.
- إن كتب الفقه السنية للمذاهب الأربعة موجودة فى الجامعات والحوزات العلمية والمكتبات العامة فى إيران، وتباع بكميات كبيرة فى معرض الكتاب السنوى الذى يقام فى طهران، والكتب الدينية الصادرة من مصر تلقى إقبالا كبيرا من شيعة إيران. ومعنى ذلك أن شيعة إيران يعتمدون على علوم واجتهادات أهل السنة ولايرفضونها.
- إن الحديث عن قرآن للشيعة يختلف عن القرآن المعروف هو قول موجود فى بعض الكتب القديمة وليس له وجود فى الواقع، ويقول المستشار الثقافى الإيرانى: لقد عشت حياتى كلها فى إيران فلم أعثر ولم أسمع عن مصحف فاطمة الذى يتحدثون عنه. وما فى الكتب القديمة عن هذا المصحف يستند إلى أحاديث مزورة، وما أكثر الأقوال غير الصحيحة فى كتب الشيعة وفى كتب أهل السنة أيضا، وفى تفسير الطبرى وهو من أهم كتب التفسير عند أهل السنة أقوال غير صحيحة أخذها سلمان رشدى ونسج منها هجومه على الإسلام.
- إن فكر الشيعة اليوم لم يعد قائما على حتمية وجود إمام من آل البيت، والدليل على ذلك أن آية الله على هاشمى رافسنجانى رئيس مجلس مصلحة النظام فى إيران ليس من آل البيت.
- إن الشيعة اليوم لا يؤمنون بمبدأ التقية لأنه كان من ضرورات الحفاظ على حياتهم فى مرحلة من المراحل فى الماضى حين كانوا يتعرضون للاضطهاد والسجن والقتل فى الدولة الأموية ثم الدولة العباسية، وهم الآن آمنون فى أوطانهم ولم تعد بهم حاجة إلى التقية.

معنى ذلك أن فكر الشيعة يتغير ويتطور مع الزمن، وما كان قائما منذ ألف وأربعمائة عام لم يعد موجوداً اليوم كما كان فى الماضى، ومع تقدم المناهج العلمية واستخدامها فى الكشف عن الأحاديث المزورة والأقوال المدسوسة على الشيعة. فإن عملية تجديد ومراجعة شاملة تتم فى الحوزات العلمية وعلى أيدى طبقة المثقفين الجدد الذين درسوا العلوم الحديثة وعايشوا العصر وأدركوا طبيعة المتغيرات الجديدة فيه.

وبالنسبة لى فقد كان حديث المستشار الثقافى الإيرانى مثيرا وجديرا بالاهتمام ، ويدعو إلى بحث ميدانى يعتمد على الكتب الحديثة وعلى المشاهدة والمعايشة ولا يعتمد على الكتب القديمة وحدها.

ولقد أقيمت ندوات ومؤتمرات علمية للتقريب بين المذاهب فى بلاد أخرى غير مصر، ومصر هى الجديرة بقيادة هذا العمل الجليل حسبة لله ولدينه.

وأنشئت فى الأزهر الشريف إدارة للحوار الإسلامى- المسيحى. فلماذا لا تنشأ فى الأزهر إدارة للحوار بين المذاهب؟.

أليس ذلك هو الواجب ونحن ننادى بوحدة المسلمين؟

obeikandl.com

كتب أخرى للمؤلف

❐ البحث عن المستقبل		المكتبة الأكاديمية	١٩٩٣
❐ تاريخ ليس للبيع	الطبعة الثانية	دار المعارف	١٩٩٧
❐ الأمية الدينية والحرب ضد الإسلام	الطبعة الأولى	دار المعارف	١٩٩٥
	الطبعة الثانية	هيئة الكتاب	١٩٦٢
❐ الغرب والإسلام	الطبعة الأولى	دار المعارف	٢٠٠٠
	الطبعة الثانية	دار المعارف	٢٠٠١
❐ المصريون فى المرآة	سلسلة اقرأ	دار المعارف	٢٠٠٠
❐ الأقباط فى مصر والمهجر	الطبعة الثالثة	دار المعارف	٢٠٠٣
❐ معجزات الخلق والخالق		دار المعارف	٢٠٠١
❐ رحلة إلى الصين		دار المعارف	٢٠٠٢
❐ صناعة العداء للإسلام	الطبعة الأولى	دار المعارف	٢٠٠٢
	الطبعة الثانية	دار المعارف	٢٠٠٣
❐ أمريكا.. رؤية من الداخل		دار المعارف	٢٠٠٣
❐ هيكل بين الصحافة والسياسة		دار المعارف	٢٠٠٣

obeikandl.com